

بعد الامتحان ... !!

للأديب الطاهر أحمد مكي

ماذا أصنع ؟ ، وإلى أين أنجيه ؟ ، وفي أي المهاد أنتسب ؟ ،
ومن أي الثقافات أرتوي ؟ ... أسئلة حائرة تترافق على لساني ،
وخواطر قلقة تتهاوج في جناني ، وآمال واسمة يضيق بها
صدرى ، وبسجز عنها بياني ؟ ...

أنا أريد المهد الذى يربى الروح وينشىء البدن ، ويساير
الحياة ، ويراعى تطور الزمن ، . . . وأنا أفنش عن الأستاذ الذى
يوجه ولا يستأثر ، ويرشد ولا يقيد ، ويرسم النهج ، ويحدد
الهدف ، ولا يدخل في التفاصيل ، ولا يتمسك بالجزئيات ،
ليجمل شخصه فوق الأشخاص ، وعقله سيد العقول ، ورأيه
أكل الآراء . . .

* * *

قالوا أمانك كلية الامة ، بها نشأت العربية ، وفي أحضانها
ترعرعت ، وعلى هدى منها تطورت ، ولملك واجد هناك
ما يرضى ذرقك وفنك ، ويشبع رغبتك وهويتك ، وبصمد بك
في ممارج من السمو البلاغى ، تتبجح لك لذة لا تمدلها لذة ،
ومتاعاً لا يمدله متاع . . .

واسترجيت نفسى ، واستأنيت فكبرى ، ولم أصدق ما قالوا
فأنا أعرف بالأزهر ، والصق بشيوخه ، وأخبر بمنأجه ، وأعلم

فأعرض عنها ولم يتفهماها .

لقد كان ذو النون في بادى الأمر متنكاً ينفذ الوحدة
ويبتنى العزلة ، ليتدرب نفسه على كبح رغباتها حتى تغلب عليها ،
فسار في طريق التوبة والتطهر حتى من الله عليه بهبة المعرفة
فأصبح في آخر الأمر صوفياً عارفاً بالله . وقد وافاه الأجل بمدينة
الجزيرة سنة ٢٤٥ للهجرة . ومما يروى عن جنازته أن كان الطير
تتجمع في السماء ونظلل نمشه . وأنه يمد وفاته ظهره على قبره
مكتوب : ذو النون حبيب الله ، من الشوق قتيل الله .

(أسيرط) هيد المومر هيد الحافظ

بطلاه ، وهم جميعاً ليسوا في شئ مما يصفون ، وإن بدت ظواهرهم
لأمة خداعة ...

فكلية الامة قالوا لها يوماً ، كوني على العربية حارساً ولها
رائداً ، ثم باركوها بالعتاية ، وغذوها بالرعاية ، وحبوها بالجاه ،
وعززوها بالإيثار ، وجملوها مطمح الأنظار ، واستخلصوا لها
من الطلاب أنجبهم وأمكنهم ، وأغزروهم ثقافة وعلماً ... ومضت
عجلة الحياة مندفة إلى الأمام ، منسعة الخطى ، فأصاب التطور
والتقدم شتى مرافق مصر ، ولكن كلية الامة لم تؤت ثمارها ،
ولم تبلغ أكلها ، ولم تحقق أمل الناس فيها ، فتواترت عن الأنظار
ذلك لأن الشرفين عليها بالأمس واليوم ، جعلوا من عقول
بنينا آلات لرصد الآراء ، ومذكرات لتسوين الجواشي ،
وسجلات لحفظ المواقف ، وحفظة على كتب الأوائل ، غنها
وسميتها ، خبيثها وطيبها . . . ثم قالوا لهم ، هذه حدودكم فلا
تخطوها ، وتلك آراؤهم فلا تناقشوها ، فوجد الطلاب أنفسهم
مضطربن لدراسة قواعد لا تتمشى مع الذوق ، ولا تستقيم مع
النطق ، ولا تنهض على أسس سليمة من الفكر الصحيح
والنظر السليم ، والرأى الثاقب ، والبحث العميق ، وتصطدم مع
واقع الحياة اصطداماً مرأ ، ثم وجدوا أنفسهم مسيرين في إضفاء
القداسة على أشخاص المؤلفين ، لا ينقض لهم رأى ، ولا تنقض
لهم قاعدة ، مع أنهم بشر أيا كانوا ، يخطئون ويصيبون على السواء
فكان الإيمان المطلق ، وما أكثر ما يجنى الانقياد الأعمى على
حقائق الأشياء .

وأنا حين أعرض لهذا المهد يمثل هذه الصراحة ، لا يمتنى
غل في النفس أو مرض في الرأى ، أن أعترف أن فيها يدرس
هناك ، كتباً لها قيمتها واعتبارها ، ولها مكانها في عالم البلاغة
والأدب ، ويرجى منها كبير فضل لو أتيح لها المدرس الصالح .
ولكن ، أين هو المدرس الصالح ؟ . . . وقد أفقدت السياسة
الأزهر سوابه ، فاضطربت فيه مقاييس الأخلاق وموازين الرجال
وجملت منه مجالاً فسيحاً لنعرة المصيبة ، وشحناء الحزبية ،
فملا أناس مكانهم في الحضيض ، وفات الركب آخرون كانت
النصفه تقضى ، أن يكونوا في مقدمة الصفوف ، ولا يرجى من
نافه علا نفع ، ولا من عزيز أمتهن قائدة . . . والعربية في كلا

شبية في الطعام ، ان تجد في دراستها نمباً ولا نصباً ، ولا رهقاً ولا وصباً ، ووجدتني أدير ظهري مرة أخرى ، فأنا عارف بما هناك قد تكون دار العلوم جميلة المبني ، لطيفة الموقع ، نظيفة المظهر ، لامعة البناء ، فاخرة الرياض ، واسكنها واسمها أيضاً أزهرية التفكير ، جامدة الشعور ، لا تربي دراستها فناً ، ولا تملئ ذوقاً ، ولا ترفح حساً ، ولا تنمي خيالاً ، وإنما تنفج مدرساً صالحاً طيباً ، لحفظ الفنانون ، ويجيد قواعد التربية ، ويطبّق منشورات الوزارة ، ويحسّن حفظ النظام في صفوف التلاميذ ...

* * *

... ان أذهب إلى الأزهر ، لأنني سأكون أكثر من أستاذي علماً ، وأوسع ثقافة ومعرفة ، فأنا أجد لغة ، وفي طريق لإجادة الثانية ، وهو لا يعرف إلا واحدة ؛ وأنا ألم بالحركة الفكرية الحاضرة ، ممثلة في الصحافة والإذاعة والمحاضرة ، وهو ليس على شيء من ذلك ... ولن أذهب إلى دار العلوم ، لأنها مصنع مدرسين ، وأنا لا أريد أن أصبح مدرساً ناجحاً ، بقدر ما أحرص على أن أكون مفكر حراً ، ولا أحرص على شيء أكثر من حرصي على المعرفة الطليقة ، التي لا تتأثر بالمذاهب والأشخاص ، قدر تأثرها بالمنطق والإقناع ...

ولا بعينتي من الحياة ، إلا أن أعيش مع أولئك الخالدين من عباقرة الإنسانية في مختلف فنونها ، مصورين ومثالين ونحاتين وأدباء وشعراء وموسيقيين ، بمن أعلوا من قيمة الإنسان وقدره وجعلوه جديراً بما أكرمه من الخالق من مزايا وصفات ...

* * *

بقيت كلية الآداب ... وهي ثرية مترفة ، ناقمة مرهفة ، تتأفف عن أمثالي ، من التلاميذ في دنيا الجاه والمال ، الفقراء في عالم المادة والسلطان ، فهي تقيم الحواجز ، وتمنع العقبات . واملوا نائبة إلى رشدنا يوماً ... عافاها الله !

وبعد ... فإن أكل تعليمي ، وفي أي مهد نستقر روحي ، وعلى أي أساس أختط نهجى ؟ ...

أنا حائر ... فهل عند أحد من جواب ؟ !

الطاهر أحمد مكي

الخالدين هي الخاسرة ، والطلاب هم الضحايا ! أ
... وإذا كانت الصراحة رائدي ، فأنا أجد في نفسي الشجاعة لأقول : أن هيئة التدريس في كلية الآداب أجمالاً ، لا تتلوهب وجلال المهدي وعظم قورالته ، وما يرجوه المخلصون من بقاء ودوام . ولست أعرف فيما أذكر من كليات مصر والعالم ، أن هيئة تدريس جامعية ، لا يجيد أسانذتها أكثر من لغتهم التي ولدوا بها ، غير كلية اللغة ، وتلك تقيصة ما كنت أحب أن يوصموا بها ، في عالم أنجى كتلة واحدة ، وتلاشت فيه الحدود والحواجز ، ولم يمد في طوع شخص متقف ، أن يستقل فيه بفكره وآرائه ، بميدة عن مؤثرات الفكر وتياراته العالمية ... وتستطيع أن تلمح أثر هذا التقصير واضحاً ، في متابعة ما يؤلف من كتب ، وما يصدر من صحف ، وما ينشر من بحوث وما يدور من مناقشات ، هل نحس لهم كلمة ، هل نسمع لهم رأياً؟ سؤال ما أظنه يحتاج إلى جواب !

كان في وسع الأزهر أن يتلافى هذا النقص ، وأن يدفع عن نفسه هذه المرة ، لو مديده إلى الأدباء والمفكرين ، ممن بنوا مجددم الملى على أسس متينة ، وبجهاد مضن ، وما عليه من بأس ، فكل جامعات العالم تسد تقصيرها . لما تجد من أسانذة متخصصين أتى وُجدوا . والعالم لا وطن له ، والحقيقة واحدة ، وإن تمددت المذاهب والأجناس والأوطان !

ولكن ... لأمر ما ، رفض شيوخنا أن يترفوا بالنقص وغيرهم بالفضل ، فأثروا السكوت والتمزلة ، وضربوا حول أنفسهم حاجزاً حصيناً ، وأقاموا دون العالم سداً طالياً ، لا ينفذ منه شماع الفكر الحديث ؛ ولا يخترقه سدى المعرفة الحققة ، لا يتقدمون ولا يتطورون ، ولا يؤثرون ولا يتأثرون ... وتلك ملامح الموت وبشائر الانحلال !

* * *

ومس في أذن آخرون ، يستحثونني في اللحاق بدار العلوم وينسبون لها من المزايا والفضائل ما عرفت وما لم أعرف ، ومن يدري فقد لا أعرفه أبداً ، لأنه ليس هناك ، وإنما هو وليد التعميب الأصم ، والخيال الغرض ...

قالوا إنها مهذبة منظمة ، مرتبة منسقة ، سخية في المال ،